

## حافظ ابراهيم شاعر الفخامة الاستاذ كرم ملحم كرم

حافظ العسكري اقتدى بالبارودي العسكري  
خارج نمره قويا كالامر دقيفا كالنظام

ظهر الشعر ضعيفا في مطلع عهد الانبعاث . فكأنه ليس بالشعر ، إن هو إلا كلمات مرصوفة بعجز ، لا تدل على معنى سام ولا تزخر بالقوة . وكأن أولئك النظامين يجهلون حسن الصياغة ، فنفحونا بشعر مائع في معناه ومبناه . وكل ما رموا فيه إلى الاقتداء بالاقدمين . لا في سبكهم الشعر بل في مواقعهم من ولاية الامر . فعلوا أن الأختل كان يمدح معاوية ويزيد ويتمتع برحابة عبد الملك ، وأن أبا نواس مدح الرشيد والأمين ، وأن المتنبي تغنى بمآثر سيف الدولة ، إذا عليهم أن يمتدحوا الحكام والولاة . عرفوا أن الشعر يبدأ بالغزل وينتهي إلى المدح ، فنهجوا هذا النهج اندفاعاً وراء البحترى والمتنبي ومهيار الديلمي ومن جرى مجراهم من شعراء العصر العباسي الأخير

وطالعوا في صنى الدين الخليل الطباقي والجناس وتسخير المعنى للألفاظ ، فقلدوا صنى الدين فيما أنشدوا من شعر ، وما نظموا من قصائد خالية في معظمها من روعة البيان والابتكار بل ، لقد حاول الشيخ ناصيف اليازجي الخروج عن هذه الدائرة ، إلا أنه لم يكن ابن نفسه في معظم ما أنشد . فهو مدين للتنبي في أكثر قصائده مع كونه شاعراً ، على أن الشاعرية لا تنى التقليد

وأول من يبرز من الشعراء الأقحاح بعد الشيخ ناصيف اليازجي هو محمود سامي البارودي ، فجمع بين حسن الصياغة والمعنى . وإن يكن هذا المعنى غير مبسوط أحياناً ينحصر في نطاق معلوم ، فهو خير ما جاد به علينا مطلع عصر الانبعاث . وتكفي تلك الصياغة المشرقة التي اهتدى إليها البارودي ونبذ بها الركافة الشائعة يومذاك ليكون لهذا الشاعر فضل عظيم على القريض . فالشعر العربي نهض بالاستناد إلى البارودي نهضة نشاهد آثارها في شعراء اليوم . وقد تكون نهضته نهضة ألفاظ أكثر منها

نهضة معان . على أن نهضة الألفاظ هذه صقلت الشعر ، ونفت عنه الاضطراب ، وقادته في طريق سوى انتهى به إلى شعر المعاني الأنيق ، البراق الظاهر ، الخالي من كل وهن وعيب سواء في لغته أو تركيبه

وحافظ ابراهيم اقتدى بالبارودي في حسن صياغته . فعمد إلى الشعر العالي النفس . المتين القلب ، يشد به نفثاته . وكأنما ونحن نقرأه نسمع الفرزدق أو بشاراً ، على أن هذا الشعر لم يكن موقفاً في معظم الأحيان بمعانيه مثله بألفاظه

فهناك ألفاظ مختارة تعيد إلى الأذهان عصر الجاهلية وما تلاه من أعصر أشرق فيها الأدب العربي وأزهر . ولا نكير أن الشعر في الجاهلية وصدر الإسلام والأعصر العباسية كان أشد خصباً في المعاني من شعر الانبعاث في مستهله ، بيد أن النهضة لا تعتمد على الطفرة في مسيرها بل تمشى وتبدأ إلى هدفها الأعلى . ولا بد في مطلع كل نهضة أدبية من هزة لفظية تحتاج القوالب الرثة لتقيم الأدب الجديد على ركن لغوي سليم

والهزة اللفظية بدأها اليازجي الكبير والشدياق ونقلها إلى مصر اليازجي الأمين ؛ فلا عجب إذا اعتمدها البارودي في ياتة وتلاه حافظ ابراهيم . وحافظ تأثر بالبارودي في شعره ومسلكه ، وطمع في أن يرتقي يوماً إلى مستوى هذا الشاعر العسكري . فالبارودي تربع في مقعد الوزارة ، وحافظ شاقه أن يجلس يوماً في هذا المقعد وإن يبلغ شأن زميله . وهو لما كان يرتدى ثوب ضابط في السودان ما انفك عن التودد إلى الشيخ محمد عبده . وكل قصده أن يمهّد الشيخ له السيل إلى الوزارة أو إلى منصب سام في الجيش . بيد أنه لم يقع منه على ضالته . فالشيخ كان يتناول رسائل حافظ ويطويها دون أن يكثر كل الاكتراث لهذا الضابط الوافر الآمال ، العاقد عليه رجاءه . فيئس حافظ أو كاد ، ودعا أخوانه إلى التمرد على الأوامر العليا ، ومال عن الجيش إلى الاشتغال بالأدب في مصر . ومع كل مالتى من فتور الشيخ محمد عبده ظل له على وفاء وولاء . واتابته الفاقة وهو يرقب انصاف الشيخ له وما تولى عن تولى عنه .

\*\*\*

وكان ميدان الأدب يضيق بالفرسان . فهناك شوقي ومطران وولي الدين واحمد محرم والمنفلوطي . وظهر شوقي في القمة يزاحمه

عليها خليل مطران . على ان حافظاً لم يدركه اليأس . فدفع في الحلبة جواده يبغي الوصول الى القمة شأن شوقي نفسه . على أن ما توفر لشوقي لم يتوفر له . فقد ملك شوقي المال والثقافة معاً . فكان واسع الاطلاع ، ناعم البال ، يعلم حق العلم ان عيشه مضمون في حاضره وفي غده . على حين ان حافظاً فقد أمله في الحاضر والمستقبل . فكافح الشقاء ، غير أن الشقاء أقوى منه . ونظر الى آتية واذا الآتي يبدو مبهماً ان لم يبد فاحماً أسود

في هذه البيئة المضطربة عاش حافظ بين الافلاس والشقاء والأمل الطعين . فلا يسعفه من اعتمد عليهم ولا ينجده دهره . ولم يبق لديه سوى يئانه . على أن البيان لم يوفر له العيش الرغيد مع كل ما فطر عليه من حسن المخالفة وجلو الحديث ونبل النفس ؛ فلم يكن حافظ ممن يتسفلون الى استجداء اللقمة ، بل كان يجتهد ما استطاع في صون كرامته وهو الرجل العسكري الشديد الحرص على شرفه وواجبه

ولمحت قصائد حافظ الأولى . وقام الناس يقارنون بينه وبين شوقي . فأدرك حافظ أنه بلغ القمة التي يصبر إليها ، وأن الحجر العثرة في الطريق هو شوقي دون سواء ، فان هو ذلل هذه العقبة هان عليه كل عسير ونال المشتهى . فليس أمامه غير هذا الخصم وعليه ألا ينام عنه ، ومما كان يؤلمه أن يلمع شوقي لدى الخديو عباس وأن يؤثره عزيز مصر على الأدباء أجمعين ، فلماذا يكون شوقي في تلك المرتبة السامية ولا يترقى هو ( حافظ ) الى المكانة نفسها . . . ولقد كان يطمع في مكانة أسمى ، فشاء أن يكون شاعر الخليفة العثماني وأن يتفوق على شوقي في أدبه ومزله إلا أن الأقدار لم تضمن له ما يرجو .

فتقم على دهره وأبى أن يناصر مذهب شوقي السيامي فدرج على خطى محمد عبده خصم الخديو ، ونفخ في بوق الوطنية فكانت قصائده تلهب الحماسة في النفوس فيصفق لها العرب بأجمعهم لكون القوة تتجلى فيها . وغار منه شوقي فنسج على منواله في رثاء مصطفى كامل وفي سقوط أدرنه وفي سقوط عبد الحميد . فكل ماثرة وطنية كانت تجد لها صدى في قريحة الشاعرين ، إلا أن صداها في منظوم حافظ أكثر صدقاً منه في منظوم شوقي . فلم يكن منى شوقي إلا أن يغلب على هذا المزاحم الوثاب . وكيف يزاحمه بسوى إطلاق بلاغته ويئانه ؟

والزحام كان جليل الفائدة . فالشاعر ان جالا فيه على ما يتسع لها المدى . فبدلاً كل ما يملك من موهبة . وكان حافظ يتفوق حيناً وحيناً شوقي . وأحياناً كانا يتساويان . إلا أن ثقافة شوقي ساعدته في استنزال المعاني أكثر مما توفر الأمر لحافظ . ولنا تنبي عن حافظ اصطيد هذه المعاني المبتكرة ، إلا أنه لم يكن موفور التوليد فيها . فاللفظ وحسن الصياغة كانا يشغلانه عن المعنى . وهو لو كان يجيد لغة أجنبية ، لو اطلع على أدب الغرب مثله على أدب العرب لبات أوسع خيالاً وأشد عمقاً في منظومه ، إلا أن جهله اللغات الأجنبية<sup>(١)</sup> وقف به عند الأدب العربي ، فما تفتحت عيناه على آفاق بعيدة يخلو منها أدبنا القديم . فكان يجتهد في الاقتداء ببشار وبالمثنبي في صياغتهما . ويميل عن كل أسفاف في المبنى . وهذا المجهود من حافظ في إنقاذ آثاره من الضعف اللغوي أهاب بشوقي إلى الانعكاف على درس اللغة ليدفع عن قصائده هذا الشين

وإن يكن لابد من المقارنة بين شاعرين عاشا في عصر واحد واندفع في طريق يكاد يكون واحداً في مآظهما وأطلقا من خراطمهما قلنا إن شوقي يتقدم حافظاً في معانيه وموسيقى ألفاظه . فيخلق في جو أسمى من جو حافظ ، فكانت يملك جناحين أوفى انبساطاً ، وأشد عزمًا . كأنه كتله من أعصاب تاني إلا أن تندفع إلى الأعلى تقع فيها على كل جديد ، فترى وتلس ما لا يتفق لسوى من ملك قوتها في اقتحام مسبح الفلك . وحسب شوقي أن يرصع صدر الملعب العربي بتلك الروايات التمثيلية . فشاء بها أن يضارح كبار شعراء العالم أمثال شكسبير وكورناني ورأسين وفولتير وفكتور هيغو . فما « مجنون ليلي » غير « روميو وجوليت » ، « شكسبير » وما « كليوباترة » غير « أندروماك » ، « لراسين »

وحافظ لم يخترق هذا الجو . فاكثرت بالديباجة الفخمة ، بعظمة الجند ، بالشارات العسكرية البراقة . فأنت تحس وأنت تقرأ بأنك أمام شاعر يقلد سيفاً ويملن أمراً . فلا محابة ولا مصانعة ، بل قوة جياشة تدعوك إلى الإصغاء بكلام طنان ثابت في مواضعه كأنه صُب فيها صبا . والأوامر العسكرية معروفة لا زخرف فيها ولا طلاء بل نفاضة وقوة . وهذه الأوامر غلبت على شعر حافظ كما غلبت على شعر البارودي فالت بهما عن

(١) الصحيح أن حافظاً كان ملماً باللغة الفرنسية وعلمها ترجم البوساء بتصرف ( الرسالة )

ولقد أثبتت الأقطار العربية الأخرى أنها تحترم حافظاً وتحنى أمام أدبه العالى . فأوفدت مثلها للاحتفال بذكره والتغنى بحامده . ولا ريب أن الملوك أنفسهم يشتهون أن ينالوا ما يتمتع به الشعراء بعد موتهم من خلود وتكريم . فالتنى والفردوسى لقيام يحتفل بمرور ألف عام على موتهما . مع أن هذا التقدير العالى لم ينل مثله كسرى ولا هرون الرشيد . وأين الفردوسى والمتنى من كسرى وهرون الرشيد فى إبان حياتهما ! ولكن الأدب أتى من العروش ، والشاعر أبعد خلوداً من الملوك ، وحافظ من هؤلاء الخالدين . ومن الراهن أن مصر تنسى المئات من أرباب التيجان الذين توالوا ويتوالون عليها ، ولا تنسى حافظاً وشوقى والبارودى وصبرى وولى الدين ، وفى ذلك الدليل كل الدليل على أن الأدب وهو وليد النفوس ، أوطد أنراً فى قلب الدهر من التيجان والصورالجملة ، وأن الأديب الأديب يرسخ فى أذهان الأجيال المقبلة رسوخاً لا يحلم به غير من دوخوا الأرض من أمثال الإسكندر ، ويوليوس قيصر ، وعمر بن العاص ، ونابليون العظيم ! ...

كرم معلمم كرم  
صاحب جريدة « العاصفة »

( بيروت )

## رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم

احمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثن ١٢ قرشاً

التغريد المتعالى من شعر شوقى والخيال المخلف به منظم شاعر الأمير إذا شوقى هو المتفوق . وشوقى روح عصر الانبعاث فى مطلع القرن العشرين . فهو مرآة الشعر فى هذا الزمن . ومن ينظر فى تاج قرأه شعراء اليوم يقبل على شوقى فى الطليعة ومن المحال أن ننسى خليل مطران . على أن المفاضلة تتناول فى مبحثنا حافظاً وشوقى دون سواهما . وحافظ لم يكن خصباً كشوقى ولا متفتناً مثله . وإذا قيل إن شوقى أغار على الأقدمين فليس ينجر حافظ من التهمة . هذا عارض من سبقوه وذلك عارض من سبقوه ، إلا أن أبواب الغزو لدى شوقى المطلاع على الأدب العربى والغربى معاً أكثر منها لدى شاعر النيل . وهذا سر من أسرار تفوق الأول ووقوف الآخر دونه فى الطريق وبما نشاهد أن عطف الناس على حافظ أقوى منه على شوقى . فإن لحافظ فى القلوب منزلة لم يبلغها شاعر الأمير . فكل من وقف على بؤس حافظ وإخفاقه فى أمانيه وعزة نفسه مال إليه متأثراً وتألم لآله . والبائس يجد حوله ذوى الرفق ، على حين أن القرير العين يصطدم أبداً بالنافقين الكارهين . وهذا هو موقف الشاعر من أبناء اللغة العربية . أحبوا حافظاً لبؤسه وخفتت فى صدورهم حجة شوقى لغناه . على أنهم إذا جاءوا يفاضلون بين الشاعرين آثروا شوقى على حافظ دون ما تردد . وتلك العاطفة الروحية لا بد لها أن تتلاشى على عمر الأيام ، يوم يفنى هذا الجيل ويبعث أبناء الغد حيال أدب شاعرين يعتمدون فى تحليل آثارهما على نور الحقيقة لا على نبضات القلوب

وهذا الايثار لا يحيط من قدر حافظ . فهو من أقطاب الشعر فى هذا العصر . وإذا استثنينا شوقى ومطران قلنا إن البلاد العربية لم تنجب حتى الآن من أمثاله . ويسرنا أن ندرك أخيراً مصر قدره وتقيم له المهرجان تلو المهرجان . وكنا نود أن يلحق هذا التكريم وهو فى قيد الحياة . فكان بحاجة إلى التقدير بعد كل ما عانى من بؤس وخيبة .

والتقدير لا يكتفى إذا تهاون المصريون فى أمر صريح الشاعر ، فإن لرفات هذا الشاعر الجندى المتوقد القريحة شأنًا تاريخياً من حق مصر أن تعتر به . فلن يقوم فى كل يوم فيها شاعر كحافظ إبراهيم .